

الباب الثاني

أعلام الشعري في بلاط سيف الدولة

- ١ أبو الطيب المتنبي
- ٢ أبو فراس الحمداني
- ٣ أبو العباس النامي
- ٤ ابن نباتة السعدي
- ٥ أبو بكر الصنوبري
- ٦ أبو الفتح كشاجم
- ٨ الخالديان أبو بكر وأبو عثمان
- ٩ السري الرفاء
- ١٠ أبو الفرج البغواء
- ١١ الوأواء الدمشقي

obeikandi.com

الباب الثاني

أعلام الشعر في بلاط سيف الدولة

تمهيد :

كان بلاط سيف الدولة ميدان سباق بين الشعراء والعلماء والأدباء فسارع كل شاعر إلى ساحته لينال عطاء الأمير ويحصل على صلاته ، فكثّر الشعراء في عهد سيف الدولة كثرة نادرة فلم يجتمع قط بباب واحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ^(١) . ولقد ضم بلاطه أعظم شعراء العربية في عصره من مختلف الأقطار فكان في بلاطه المتنبّي وأبو فراس والصنوبري وكشاجم والسريّ الرقاء والأوواء الدمشقي والنامي والخالديان وابن نباتة السعدي والسلامي وغيرهم ووفد عليه من أرض الكنانة أكثر من شاعر كالمُعَنَّم المصري ومحمد بن سُلَيْمِيّ الشيباني ^(٢) وابن أبي الجويع عبيد الله ابن محمد بن أبي الجويع ^(٣) .

وقد اختار أبو الحسن الشمشاطي وأبو محمد الفياض الكاتب من مدائح سيف الدولة عشرة آلاف بيت ^(٤) .

(١) اليتيمة (١ / ١١) .

(٢) الفهرست لابن النديم ص (٢٤٠) .

(٣) اليتيمة ط ٢ (١ / ٤١١) .

(٤) اليتيمة (١ / ١١) .

والحقيقة أن كثرة الشعراء في رحاب الأمير الحَمْدانيّ جنت على عدد كبير فحُشِرُوا مع النكرات الشعرية ، فكان إلى جانب الشعراء المشهورين عشرات من الشعراء المغمورين الذين لم تُعْنَ بهم مصادر الأدب والتاريخ إلاّ لمأماً .

ويرى المرحوم الأستاذ العقاد : أنه في القرنين الثالث والرابع أوشك كل متعلمٍ متأدّب أن يكون شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراض الشعر ، فالخلفاء ينظمون في الغزل والغناء ، والأمراء والوزراء والقواد والكتّاب والقضاة كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير لذلك عاش في هذين القرنين كثرةٌ فائقةٌ من قائلِي الشعر المحسنين محترفين وغير محترفين^(١). ويمكننا أن نقول : أن مدرسة شعرية كثيرة الطلاب والفصول والأساتذة قد ظهرت في بلاد الشام في عهد سيف الدولة وقد اختلفت هذه المدرسة عن غيرها ، وتنافس أعلامها وفحولها في إبراز الشعر الرفيع ونسج اللفظ البديع ذي المعنى الجديد والفكر الوطيد وأصبحت جواهر الشعر لا تروج في بلاط الأمير إلاّ إذا كانت ذات طابع ممتاز ورواء أخاذ في التصوير والتفكير والتعبير .

وهذه المدرسة الشعرية التي امتازت بحسن السبك وجمال الحلوك . وانفردت بالإشعاع ذي الإبداع كان الصاحب ابن عباد يعجب بها وبطريقة شعرائها المثلى التي كانت سبيل البحري في الجزالة والغذوبة والفصاحة والسلاسة ومن هنا كان شديد الحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، كثير الشغف باستملاء الطارئین عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع والروائع حتى كتب دفترأ ضخماً الحجم منها .

(١) ابن الرومي - العقاد - ص (٤٤) .

وكان حفيماً بمصاحبته ، حريصاً على ألاّ يتملأ منه أحد سواه وانثال ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي شبا قلمه ليحاضر به في مخاطباته ومحاوراته أو ينشره بعد أن ينثره في رسائله (١) .

وسنعرض بالبحث الفاحص والدراسة الماحصة لحياة فحول هذه المدرسة الشعرية التي عاشت في القرن الرابع بأطراف الشام والتي ضمت شاعر العربية الكبير المتنبي وزميله أبا فراس الحمداني وكشاجم والصنوبري والسري الرفاء والنامي والوأواء وغيرهم من أعلام الشعر وسادته وقادته وسوف نلقي عليهم الأضواء ونسلط الأنوار بعد أن كادت شهرة المتنبي تشجب وجودهم وتحجب شهرتهم وتمنع الالتفاف إليهم أو العناية بهم . ولقد غطى المتنبي على جميع مزامنيه من الشعراء ولم يذكر منهم بجانبه إلاّ أبو فراس الحمداني ، وذلك لقربته من الأمير وجزالة شعره الأثير ولولا مكانته من السلطان لاختفى اسمه كما اختفى غيره من الشعراء (٢) .

وقد اضطررنا إلى إجمال الحديث في هذا الباب دون ذكر فصول لأن كل شاعر من هؤلاء الأعلام يمثل بحثاً مستقلاً وقد تعرضنا لأحد عشر شاعراً بالدرس والتحليل واكتفينا باسم كل منهم ليكون عنواناً خاصاً يقوم مقام الفصل في هذا المجال الفسيح .

(١) اليتيمة (١ / ١٣) .

(٢) العمدة (١ / ١٣) .

المتنبى

أبو الطيب المتنبى شاعر العربية الكبير سفر خالد في تراثنا الأدبي كتبت عنه مجلدات ضخمة ولا تزال حياته تستهوي الباحثين والدارسين ولست هنا بصدد تأريخ حياة الشاعر الكبير ولكن صلته بسيف الدولة تدفعني إلى أن ألمّ بحياته وجوانب إبداعه الفني في البلاط الحمداني .
والمشهور في نسب المتنبى أنه أحمد بن الحسين بن الحسن عبد الصمد الجعفي الكندي ^(١) .

وقد ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة فنسب إليها وليس من كندة القبيلة العربية المعروفة بل هو جعفي النسب من مذحج ^(٢) وقد أخطأ بعض المؤرخين فظنوها كندة القبيلة التي منها امرؤ القيس حيث قال « بدىء الشعر بكندة وختم بكندة يعني امرؤ القيس والمتنبى ^(٣) » ولقد كان المتنبى يخفي نسبه دائماً لأمر في نفسه ، ولما سأله التنوخي عنه لم يجب وقال : أنا رجل أنزل دائماً على القبائل والأعراب وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسب لا آمن أن يكون لبعض الأعراب ثار في قومي فيأخذوني بهم ، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ولا يخافون لساني ^(٤) . ويرى الدكتور عبد السلام سرحان أن هذا الاعتذار يكاد يكون مقبولاً فإن عصره كان عهد فتن وثورات

-
- (١) وفيات الاعيان (١ / ٤٤) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٢) .
 - (٢) شذرات الذهب (٣ / ١٤) .
 - (٣) وفيات الاعيان (٢ / ٥٤٢) .
 - (٤) نشوار المحاضرة (٤ / ١٢٠) .

دينية وسياسية واجتماعية وكان النزاع بالغاً أشدّه بين القبائل العربية وبين العرب وسواهم ولقد أحسن في إخفاء نسبه من نواح أخرى فهو رجل عظيم النفس عالي الهمة كبير الآمال كثير الأعداء ومن الصعب أن يعترف بنسب لا يرفع رأساً ولا يورث مجداً لأن أهله فقراء والمال عصب الحياة وسبيل الجاه في ذلك العصر (١) .

روى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان أبوه يعرف بعبدان السقا ويسقي لنا ولأهل المحلة . . . وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفى بن سعد العشيرة وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات (٢) وقال ابن نباتة وقيل أن أباه كان يسمى عبدان السقاء وهو رجل كان يسقي الماء على جمل له بالكوفة (٣) . ويذهب إلى هذا القول نفسه ابن خلكان (٤) ويشك الثعالبي في صحة هذا القول ويذهب إلى أن ابن لنكك أحد شعراء البصرة هو الذي شمت بالمتنبي بعد وقعة شعراء بغداد فيه بإغراء الوزير المهلبى لأن المتنبي ترفع عن مدحه وذلك قبيل سفره إلى بغداد فقال زاعماً — والعبارة للثعالبي — إن أباه كان سقاء وسجل ذلك في قوله :

قولا لأهل زمان لا خلاق له ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتُ المتنبي فوقَ منيته فزوجوهُ برغمِ أمهاتكم
لكنَّ بغدادَ جاد الغيث ساكنها نِعَالُهُم في قفَا السقاء ترذحمُ (٥)
ويرى الدكتور عمر فروخ أن هذا الزعم باطل إذ أنه عثر في قاموس

(١) أبو تمام والبحري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر — عبد السلام سرحان — خ — ص (٣٦٧) .

(٢) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٣) .

(٣) سرح العيون ص (١٦) .

(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٦) .

(٥) يتيمة الدهر (١ / ١٠٠) .

الفيروزابادي على عبارة بهذا النص . إن عبدان السقاء بالكسر لقب والد المتنبي فقال يبدو لي أن والد المتنبي كان طويل الأطراف دقيقها لذلك شبه بعبدان السقا وهي العيدان أو العصي التي تُنصبُ ليقام عليها السقاء ، فلا يكون حينئذ لهذا اللقب صلة بسقي الماء ولا بالفقر والغنى والحمول والشهرة^(١) . ومهما يكن من أمر فإن شاعرنا عربي الأب والأم ولا يعيبه إن كان من بيت فقير ، ومن الحق أن أهله شرفوا به وارتفع مجدهم على أكتافه .

نشأته :

ولد المتنبي بمحلة كندة في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً^(٢) . وفي هذا الكتاب تعلم القراءة والكتابة^(٣) وقد امتاز أثناء دراسته بالذكاء النادر والذهن المتوقد والشغف الشديد بالعلم^(٤) . وذهب في صباه إلى البادية وصحب الأعراب ثم عاد إلى الكوفة بعد سنين بدوياً قحاً^(٥) .

وبعد أن قضى فترة صباه بالعراق متنقلاً بين ضواحي الكوفة والبوادي المحيطة بها ووارداً بغداد سنة ٣١٩ هـ لما أغار القرامطة على الكوفة سافر أبوه إلى بلاد الشام سنة ٣٢١ هـ^(٦) .

ويقول الثعالبي عن نشأة أبي الطيب : ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في سنة ثلاث وثلثمائة وأن أباه سافر به إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه إلى المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه وضوا من النجح فيه حتى توفي أبوه ، وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع^(٧) .

(١) فن المتنبي بعد ألف عام - إبراهيم العريض ص (٦٠) .

(٢) خزانة الأدب - البغدادي - (١ / ٦) .

(٣) الصبح المنبي (١ / ٦) .

(٤) سرح العيون ص (١٦) .

(٥) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٣) .

(٦) الكشف عن مساوئ شعر المتنبي - صاحب بن عباد ص (١٢) .

(٧) اليتيمة (١ / ١١٢) .

ويرى الأستاذ عبد الوهاب عزام أن قول الثعالبي هذا وهم لأنه من المؤكد تاريخياً أن المتنبي قد نزع إلى بلاد الشام وهو في ريعان الشباب .

وقد خرج المتنبي إلى بني كلب وأقام فيهم ويزعم بعض أهل الأدب أنه ادعى النبوة لما كان بالبادية وكثر أتباعه وأشياعه . وقد سجن من أجل ذلك وفي هذا كلام كثير ليس هذا محله . والذي لا شك فيه أن المتنبي سجن بالشام في شبابه ويتفق على هذا شعر أبي الطيب ورواة سيرة حياته ، وأما الجناية التي سجن من أجلها ففيها اختلاف كبير فبعض الرواة ذهب إلى أنه ادعى النبوة وبعضهم يرى أنه ذهب مذهب العلوية وبشر في حقهم بالخلافة وطغيان بني العباس عليهم . والمتنبي نفى عن نفسه هذه التهمة ولم يرضَ بها ، قال له بعض الأكابر في مدينة السلام أخْبِرْني من أثق به أنك قلت إنك نبي . فقال الذي قلته أنا أحمد النبي (١) .

ويرى الدكتور طه حسين أن سبب سجن المتنبي هو آراؤه الثورية التي ضمنها شعره واستهانته بالقواعد الدينية وتشبيهه المسلمين باليهود والقروء ودعوته الناس إلى تلك المبادئ الخطرة التي عرفت عن القرامطة (٢) . وكذلك أنكر نبوته الأستاذ عبد الوهاب عزام (٣) ويرى الدكتور عبد السلام سرحان أن أسباب سجنه هي استعداده للخروج على الدولة وإلهايه نفوس الشباب من لداته وتهوين الموت في سبيل المجد واجتماع كثير من شباب البادية حواليه إعجاباً بشجاعته وأدبه ومبادئه الثورية (٤) . كما أنه يرجح أن المتنبي سجن سنة ٣٣٠ هـ أو بعدها بقليل .

(١) شرح ابن جنى (ص ٩٩) .

(٢) مع المتنبي ص (١٦٦) .

(٣) ذكرى أبي الطيب ص (٧٢) .

(٤) أبو تمام والبحثري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر - عبد السلام سرحان - خ - ص (٣٦٧) .

ولما خرج المتنبي من سجنه هام على وجهه في بلاد الشام متكسباً بشعره يقصد الممدوحين فيخيبون رجاءه أو يعطونه نزرأ فيثور ثم تضطره الحاجة إلى المدح . ومن أشهر ممدوحيه قبل اتصاله بسيف الدولة بدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية ومساور بن محمد الرومي والي حلب وسعيد ابن عبيد الكلابي والحسين بن عبيد الله بن طغج بن أخي الإخشيد وطاهر العلوي وعلي بن إبراهيم التنوخي ومحمد بن زريق الطرسوسي وغيرهم .

واتصل المتنبي بأبي العشائر والي إنطاكية سنة ست وثلاثين وكان أبو العشائر والياً على إنطاكية من قبل سيف الدولة فلما قدم الأمير الحمداني إنطاكية سنة ٣٣٧ هـ قدم أبو العشائر إليه أبا الطيب وأثنى عليه . وقال صاحب الصبح المنبئي^(١) واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد وألاّ يكلّف تقبيل الأرض بين يديه فنُسِبَ إليه الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وصحب أبو الطيب سيف الدولة ثماني سنوات وقد قربه سيف الدولة وأجازه الجوائز السنية ومالت نفسه إليه وأحبه واكتفى منه في العام بثلاث قصائد يجيزه عليها بثلاثة آلاف دينار^(٢) .

ولبت المتنبي مع سيف الدولة مدة طويلة وقال فيه نحو ثلث شعره كمأ وأجودَه كيفاً وقد قال في هذه الفترة أروع شعره في تصوير معارك سيف الدولة وحروبه إذ كان يشهد المواقع وكان يبدي ضررباً من البطولة ولكنه اضطرّ لترك حلب عندما لم يكبح الأمير جماح المتطاولين عليه وقد فارقه لأنه سمح لابن خالويه النحوي أن يضربه بمفتاح كان في يده حينما اشتد الجدل بينهما في مجلسه على مسألة في علم النحو ، فتوجه إلى دمشق سنة ٣٤٦ هـ

(١) الصبح المنبئي (١ / ٦٦) .

(٢) الصبح المنبئي (١ / ٦٥) .

ومنها يسم شطر مصر فتلقاه كافور بالتكريم والتبجيل فمدحه بمدائح بالغ فيها مبالغت كبيرة ووعدته بإحدى الولايات ولكنه ظل يماطله إلى أن نفذ صبره وعندما سنحت له الفرصة هرب من مصر في سنة ٣٥١ هـ وذم كافوراً بقصيدته المشهورة :

عيدٌ بأية حال عُدتَ يا عيدُ بما مضى أمْ لأمرٍ فيكَ تجديدُ ؟
ووصل إلى الكوفة ومنها توجه إلى بغداد وحضر فيها بعض مجالس الوزير المهلبى العلمية وترفع عن مدح المهلبى فغاضه ذلك وأغرى به شعراء بغداد الذين تباروا في هجائه والتَّيْل منه وفيهم ابنُ الحجاج وابن سُكْرَةَ الهاشمي وأبو علي الحاتمي فلم يردَّ عليهم احتقاراً لهم ^(١) .

وأرسل إليه ابن العميد من أركان فساد إليه ومدحه ، ثم اتصل بعضد الدولة في شيراز ثم ارتحل عنها فقتل في الطريق ٣٥٤ هـ قريباً من النعمانية في الجانب الغربي من سوادِ بغداد والذي قتله هو فاتك بن أبي جهل الأسدي وقتل معه ابنه مُحَسَّدًا وغلَّامه مُفْلِحًا ^(٢) وذكر الباحثون أن سبب قتله إياه هو هجاؤه ابنَ أختِ فاتك ضُمَّةَ بنَ يزيدَ العُتْبِي .

المتنبي وسيف الدولة :

خرج المتنبي من سجنه فقيراً ناقماً على الزمان وأهله وأخذ يتردد على الحكام فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديرًا لا لنفسه ولا لشاعريته ولقد مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غوارباً اللابساتُ من الحريرِ جلابياً

(١) العمدة (١ / ٩٢) .

(٢) الكامل (٨ / ٢٢٣) .

فلم يُعْطِهِ إِلَّا دِينَاراً واحداً ولذا سميت الدينارية ^(١) .

وكان المتنبي آنذاك يشكو الفقر وسوء الحال ويصرّح بذلك في قصيدة مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي :

لَمَّا أَقْمَتَ بِإِنطَاكِيَّةَ اِخْتَلَفْتُ إِلَى الْخَبْرِ الرَّكْبَانُ فِي حَلَبَا
فَسَرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ أَحْسُ رَاحِلَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا
أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلَوَى شَرَقَتْ بِهَا لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى مَا عَاشَ وَانْتَجَبَا ^(٢)

ولقد روي أن المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم ^(٣) ولقد قالوا : إن أكثر ما نال شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة ^(٤) .

وشعر المتنبي في تلك الفترة ينحط في أغلبه عن شعره في الأطوار التي تلت . ولقد قال الواحدي : ولو طرح أبو الطيب شعره في صباح من ديوانه لكان أولى به ثم اتصل المتنبي بسيف الدولة في سنة ٣٣٧ هـ فوفر له بعطائه السخي وصلاته الوافرة الهدوء والاستقرار ، ووجد في البلاط الحمداني كثيراً من المنافسين . والمنافسة تُذْكَرُ الخيال وتثيرُ القريحة وصحب الأمير شاعره في الحروب التي خاضها فشهد المعارك الدامية وأبصر ضرباً من البطولات فوصفها بملاحمه الحالدة التي فاق فيها أقرانه وعلا فوق كافة الشعراء .

فلقد صور في سيفياته بطولات الأمير وذكر القواد وتنظيم الجيوش والخيول والرماح المحطمة والسيوف المتكسرة والدماء السائلة كما وصف

(١) اليتيمة (١ / ٩٥) .

(٢) الديوان ص (٧٢) .

(٣) خزانة الادب - البغدادى - ص (٣٤٦) .

(٤) المرجع نفسه ص (٣٥٠) .

سما المعارك والغبار المثار والمنعقد في الفضاء والجبال التي طواها الجيش الحمداني والأنهار والسهول التي قطعها . ولقد أكثر وأجاد في وصف المعارك حتى قال ابن الأثير واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ولا منه مثلثاً وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا فطريقته في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه^(١) .

ولقد أقام المتنبي برحاب الأمير عشر سنين وقال فيه غرر قصائده وعيون شعره التي بلغت نحو ثلث ما قال في ديوانه . وسجل بها مآثر سيف الدولة وبطولاته وانتصاره وهزيمته والضرب والطعن والأسر والسبي كما سجل الشاعر أحاسيس نفسه في مشاعرها المختلفة من انقباض وانبساط واضطراب .

ولم يأل سيف الدولة جهداً في برّ شاعره ومنحه العطاء والصلات وإغداق النعمة عليه وإكرامه وإعظامه ، وقد روى البغدادي أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى للمتنبي فكان خمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات^(٢) ولقد هدأت نفس الشاعر في رحاب الأمير فترك الشكوى وابتعد عن حديث الثورة الذي طفق به شعره في الماضي .

ولقد وجد الشاعر في سيف الدولة الأمير الذي ينشدُهُ ورأى الأمير في المتنبي فتىً أبيضاً جديراً بصداقته وشاعراً مجيداً خليقاً بتخليد بطولاته وانتصاراته فكان يصحبه في حله وترحاله ، وكان يفضلّه على الشعراء كافة فاستطاع أن يحتل الصدارة وينتزع من الشعراء لواء الإمارة

(١) جواهر الادب - احمد الهاشمي (١ / ٣٧٣) .

(٢) خزنة الادب - البغدادي (٢ / ٣٥٢) .

أجاد المتنبي في سيفياته وقوي شعره في رحاب الأمير الحمداني وأخرج
غرر شعره، ولم يجد شعره في زمن جودته أيام سيف الدولة وذلك لأسباب
أهمها : أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما
وجد في هذه الأيام فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته فكان يحتقر كافوراً
لأعجميته ويسب ابن خالويه لأعجميته ويقول في أبياته :

تُهَابُ سِوْفُ الهِنْدِ وهي حدائدُ فكيف إذا كانت نِزاريةً عَرَباً
فكان لهذا إذا مدح كافوراً وغيره لم يُخلِصْ ولم يواتِهْ طبعه وإذا
مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضةً في مدحه وانثالت عليه المعاني
انثيالاً^(١) .

كما أن المتنبي نِزْبُ سيف الدولة فهما من مواليد سنة ٣٠٣ هـ واتحاد
سنيهما كان من عوامل الانسجام بينهما وتقوية أواصر اتصاهما .

وعامل آخر من شأنه أن يائس الطبع ويقوي الاستعداد ويلهب العاطفة
ذلك أن سيف الدولة فارس شجاع وقائد محارب ، والمتنبي فارس شجاع
جريء يعيش الضرب والطعان . رقد صاحب الأمير في عدة معارك وفي إحدى
هذه المعارك فر الجنود والقواد ولم يبقَ حول سيف الدولة غير ستة أحدهم
المتنبي^(٢) .

كما أن سيف الدولة شاعر مُجيدٌ وناقد بارع ذو بصر بالشعر^(٣)
والمتنبي شاعر فذ وثقافته واسعة وقدرته في مجال الأدب كبيرة ، هذا بالإضافة

(١) فيض الخاطر - أحمد امين ص (٧٩) .

(٢) البتيمة (١ / ١٥ ، ٣٤) .

(٣) البتيمة (١ / ١٥) .

إلى ندوة الأمير التي جمعت نفراً من العلماء والشعراء والموسيقيين والفلاسفة مما لم يجتمع بباب أحد من الملوك . وهذا من شأنه أن يهيئ لكل من يعيش في رحاب البلاط حظاً كبيراً من الثقافة والمعرفة وينمي الشاعرية لدى ذوي المقدرة والاستعداد .

وكان للمنتبي خصوم يبحثون عن ذامٍ يشوهون به سمعته وعيب ينقصون به شعره وينزلون به من قدره ويحاولون جادين أن يهدموا مجده ويقوضوا مدحه . فكان يجهد ليعمل على زيادة غيظهم ويبالغ في إرغامهم وردّ سهامهم إلى نحورهم .

وعامل آخر له أهميته في توطيد صلة الأمير بالشاعر ومن شأنه أن يعمل على إجادة شعره وهو اشتراك المنتبي وسيف الدولة في التشيع إلى العلويين ومناصرة دعائهم ومدحهم بالمال دائماً^(١) .

كما يجب ألاّ يغربّ عن بالنا الهباتُ والصلواتُ والجوائزُ السنية التي كان سيف الدولة ينعم بها على المنتبي والتي كانت تدفعه للإجادة وتحثه على أن يسعى بكل جهده للبحث عن المعاني العميقة والأفكار الدقيقة وهو القائل :

تركتُ السرى خلفي لمن قلّ ماله وأنعلت أفراسي بنعماك عسجداً
وقيدت نفسي في هواك محبةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً^(٢)

المنتبي وفساد أمره مع سيف الدولة :

كثر حساد المنتبي وخصومه في بلاط الأمير من الشعراء والأدباء ويرى

(١) خزانة الأدب (٢ / ١٤٤) .

(٢) اليتيمة (١ / ١١٦) .

طه حسين أنه ليس غريباً أن تكره حاشية الأمير ولا سيما الشعراء والأدباء
تقدم الشاعر وما صحبه من غطرسة عليها واستعلاء وليس غريباً أن تضيق
بالشاعر حين ترى أن شعره يقع من الأمير موقعاً حسناً ثم تبغضه أشد البغض
حين ترى الأمير يؤثره أشد الإيثار . وهي مكرهة أن تلزم الصمت عن هذا
الشاعر الذي يسودها في نفسها وفي مكانتها من صاحب القصر ثم يستأثر
عنها بالخطوة (١) .

وربما كان من أشد خصوصه أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس الحمداني
وابن خالويه النحوي .

لقد كان النامي يحتل مكانة الصدارة في البلاط الحمداني حتى جاء المتنبي
فحلّ محله ونزل منزلته فغاض ذلك النامي وجاء في الصباح المنبي أن أبا فراس
قال لسيف الدولة : ان هذا المتشدد كثير الإدلال عليك . وأنت تعطيه كل
سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على
عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره (٢) .

كما أن المتنبي كان دائماً الجدل مع ابن خالويه في المسائل اللغوية فكان
ذلك يثير غضبه ونقمة على الشاعر ، وهذا بالإضافة للصدقة الحميمة
التي كانت تربط ابن خالويه بأبي فراس والتي كانت سبباً في عداوته للمتنبي .

يضاف إلى ذلك أن صفات المتنبي من غرور وشعور بالعظمة وتعال
واحتقار للآخرين كانت تثير النقمة عليه والعداء له ولقد عرض بالشعراء
الذين ضمهم بلاط الأمير الحمداني فرماهم بأنهم أذعياء الشعر وأنهم ليسوا
إلاّ صدى لصوته فقال :

(١) مع المتنبي ص (٢٥٨ - ٢٥٩) .

(٢) الصباح المنبي ص (٤٥) .

ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى
وكيف لا ينقم عليه الشعراء في بلاط الأمير وهو القائل :

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول
ولا شك أن أولئك الشعراء قد بيتوا المكاييد للمتني وناصبوه العداء ،
وقد صرح بذلك حيث يقول :

أني كل يوم تحت ضبني شُويعرٌ
لساني بنطق صامت عنه عاذلٌ
وأنتعب ما ناداك من لا تجيبه
ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطاولٌ
وقلبي بصمتي ضاحكٌ منه هازلٌ
وأغيطُ من عاداك من لا تشاكل^(١)

وحيث يقول لسيف الدولة :

أرى المتشاعرين غرّوا بسذمي
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ
ومن يك ذا يحمّدُ الداء العضّالا
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ
يَسْجِدُ مُرّاً به الماء الزُّلالا^(٢)

وديوانه حافل بالشعر الذي يتحدث عنه الحساد والوشاة والناقمين :

وذهب الأستاذ محمود شاكر إلى أن العداوة بين أبي فراس والمتني
لا ترجع إلى منافسة في الشعر وإنما السبب الحقيقي في هذا العداء راجع لحب
المتني لخولة — شقيقة سيف الدولة — الذي جلب كيد أبي فراس ثم أبي
العشائر^(٣) .

(١) الديوان (٣ / ٢٩٤) .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٢٩ .

(٣) أبو الطيب المتني بعد ألف سنة — صحيفة دار العلوم — مقال بعنوان
المتني يعيش (١٩٩ - ٢٠٢) .

وقال بمثل هذا القول محمد سعيد العريان والدكتور المحاسني^(١) ومارون عبود^(٢) الذي يرى في قصيدة رثاء المتنبي لحولة شبهة تدعم ظن الأستاذ محمود شاكر ، وإن ما حدث بين المتنبي وسيف الدولة يثير شكاً قوياً وهو يتساءل عما يخاف الشاعر ليعقب على قوله :

يظنُّ أنَّ فؤادي غيرُ ملتهبٍ وأنَّ دمعَ جفُوني غيرُ مُنسكبٍ

بقوله :

ولا ذكَّرتُ جميلاً من صنائعها إلاَّ بكيتُ ، ولا ودَّ بلا سببٍ

فمثل هذا البسط بل مثل هذا التعليل لا يطلب من الشعراء فهي إذن عاطفة حاول الشاعر إخفاءها فأبْت إلاَّ أن تظهر وتبين . ثم يقول : — بماذا نعلل هذا الحنين الدائم إلى سيف الدولة وهو مصطبغ بألوان الحب أشد اصطباغ .

رحلتُ فكم باكٍ بأجفان شادن عليَّ وكم باكٍ بأجفان ضيغمٍ
ولو أنَّ ما بي من حبيبٍ مُقنَّعٍ عذرتُ ولكنَّ من حبيبٍ معممٍ
رمى واقعي من دون ما كنت أتقي هوَّى كاسرٌ كفيَّ وقوسِي وأسهمِي

كما ذهب الأستاذ إبراهيم العريض إلى تأكيد قصة الحب المزعومة قائلاً : ان الفضل في كشف النقاب عن هذا الجانب الخفي من حياة المتنبي يرجع إلى الأستاذ محمود شاكر^(٣) .

ويرى الدكتور طه حسين أن القصيدة التي رثى بها أبو الطيب حولة لا

(١) المتنبي ص (٣١ / ٤٨) .

(٢) فن المتنبي بعد ألف عام — يوسف العريض — ص (٢٤٢ / ٢٤٣) .

(٣) فن المتنبي بعد ألف عام — إبراهيم العريض — ص (٢٤١) .

تدل على صلة قريبة أو بعيدة بينه وبين الفقيدة وكل ما يمكن أن يفهم منها أن الشاعر يتحدث عن بر الفقيدة له وإحسانها إليه كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب ^(١) . وإني أرى أن المتنبي رجل يجري وراء المجد ويبحث عن العلا والوصول إلى الولاية وقد أفنى عمره وهو يتطلع إلى تحقيق ذلك ولا يهتم إلا بنفسه ولا يعيش إلا لها فهو كما يصفه شوقي ضيف : — كان يعيش في نفسه ويحس آماله ومطامحه وما يجيش في صدره من ثورة على الزمن والمجتمع ^(٢) واستبعد عدد من الباحثين حكاية الحب هذه ومن هؤلاء محمد كمال حلمي ^(٣) وأحمد الشايب ^(٤) وشفيق جبري ^(٥) وشوقي ضيف .

وأود أن أضيف أن شخصية الأمير الحمداني العظيمة الجديرة بالحب والإعجاب كان لها أثر في استحداث أسلوب فني جديد في شعر المتنبي بمخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبته المحبوب والصدیق . ولقد تنبه إلى ذلك الثعالبي وعده من محاسن شعر المتنبي حيث قال : — وهو مذهب له تفرد به واستكثر من سلوكه اقتداراً منه وتبحراً في الألفاظ والمعاني ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء وتدرجاً لها إلى مماثلة الملوك في مثل قوله :

مالي أكتسّم حُبّاً قد برى جسدي وتدّعي حُبّاً سيف الدولة الأمم ؟
إن كان يجمعنا حُبّ لغرّته فليت أنّا بقدر الحب نقسّم

وقوله لكافور :

-
- (١) مع المتنبي (٢١١ - ٢١٢) .
 - (٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص (٣٠٥) .
 - (٣) أبو الطيب المتنبي (١٩٠ - ١٩١) .
 - (٤) أبحاث ومقالات ص (٨٣) .
 - (٥) المتنبي ص (١٥١) .

وما أنا بالبأغي على الحبّ رشوةً ضعيفُ هوًى يُبغى عليه ثوابُ
وما شئتُ إلاّ أن أدُلَّ عَوَازِلِي على أن رأسي في هَوَاكَ صوابُ

وهذه الخاصية وجدت في شعر المتنبي بعد اتصاله بسيف الدولة وعلة ذلك أن الأمير الحمداني نال إعجاب الشاعر وملك قلبه ورأى فيه المثل الذي يعشقه فهو البطل المجاهد والفتى العربي الذي خاض المعامع وواقع الروم عشرين عاماً والمتنبي كما نعلم متعصب للعروبة وكاره للعجم :

ولمّا الناسُ بالملوكِ ومَا تُفْلَحُ عُرْبُ ملوكها عَجَمُ

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا لا نميل مطلقاً إلى الزعم القائل بحب المتنبي لحولة وبأن هذا محض من الوهم والخيال لا يثبت أمام الحقيقة والواقع .
ونعود إلى القول بأن المتنبي أنشد سيف الدولة آخر قصيدة له في سنة ٣٤٥ هـ تلك التي أولها :

عقبِي اليمين على عقبِي الوغى ندَمُ ماذا يُزِيدُكَ في إقدامك القسمُ

ثم يم شطر الكنانة بعد خلافه الذي تحدثنا عنه مع ابن خالويه الذي ضربه على وجهه بمفتاح من حديد فأسال دمه على وجنتيه وثيابه .

ولقد تنقل المتنبي بعد رحيله عن حلب بين مصر والعراق وبلاد فارس ومدح الملوك والأمراء ولقي في ربوعهم التقدير والإكبار ، إلاّ أنه لم تحلُ بعد سيف الدولة أيامه وتراجع شعره بعد مفارقتة وعندما سئل عن ذلك قال :
— قد تجوزت في قولي وأعفيتُ طبعي واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان^(١) ومن المؤكد أن فراقه هذا كان مؤلماً لقلبه عزيزاً على نفسه .

(١) الصبح المنبى ص (٢٤٠) .

ولقد كاتب الأمير الحمداني أبا الطيب بعد رحيله عن مصر وعودته إلى الكوفة داعياً لإياه إلى العودة إلى حلب ^(١) فأجابه المتنبي بقصيدة رائعة يتضح فيها إكباره للأمير ولكنه يتغاضى عن أمر العودة إلى البلاط الحمداني فقال:

مَالَنَا كُلُّنَا جَوَىَّ يَا رَسُولَ أَنَا أَهْوَى وَقَلْبُكَ الْمَتَّبُولُ
كَلَّمَا عَادَ مَنْ بَعَثْتُ إِلَيْهَا غَارَ مِنِّي وَخَانَ فِيمَا يَقُولُ

إلى أن يقول :

كَيْفَ لَا تَأْمَنُ الْعِرَاقُ وَمِصْرُ وَسَرَايَاكَ دُونَهَا وَالْخِيُولُ؟
لَوْ تَحَرَّفْتَ عَنْ طَرِيقِ الْأَعَادِي رَبَطَ السِّدْرُ خَيْلَهُمُ وَالْتَخِيلُ
أَنْتَ طَوَّلَ الْحَيَاةَ لِلرُّومِ غَاظُ فَمَتَى الْوَعْدُ أَنْ يَكُونَ الْقُفُولُ؟
وَسَوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ فَعَلَى أَيِّ جَانِبَيْكَ تَمِيلُ؟
قَعَدَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَنْ مَسَاعِي لَكَ وَقَامَتْ بِهَا الْقَنَا وَالنُّصُولُ
مَا الَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الْمَنَابِإُ كَالَّذِي عِنْدَهُ تُدَارُ الشَّمُولُ

وسمع المتنبي بوفاة أخت سيف الدولة « خولة » فرثاها قائلاً :

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كَنَائَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاعَنِي خَبَرٌ فَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِي صَدَقَهُ أَمَلًا شَرَقْتُ بِالْدَّمْعِ حَتَّى كَادِ يَشْرِقُ بِي

وعلى أثر ذلك أرسل إليه الأمير الحمداني مالاً وهديةً وكتب إليه يدعوه للعودة إلى حلب إلا أن المتنبي اعتذر وبعث إليه يقول :

(١) ذكرى أبي الطيب - عبد الوهاب عزام - ص (١٧٣) .

فهمتُ الكتابَ أبرَّ الكتبِ فسمناً لأمرِ أميرِ العربِ
وطوعاً له وإبتهاجاً به وإن قصّرَ الفعل عما يجب
وما عاقي غيرُ خوفِ الرُشاةِ وأن الوشائات طرُق الكذبِ

وخلاصة القول أن سيف الدولة كان عظيماً وكان المتنبي شاعراً عبقرياً
أحبّ كلّ منهما الآخر وسعى الحسادُ بالنميمة ففرقوا بينهما . ولقد كان
كل منهما متمماً جزءاً من الثاني وممهّداً له طريق البقاء والخلود .